

بسم الله الرحمن الرحيم

رياض الصالحين

شرح حديث أبي هريرة رضي الله عنه - "ليس الشديد بالصُّرعة" 2

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فكنا نتحدث عن قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ليس الشديد بالصُّرعة، وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب)).

وقد ذكرنا أموراً يمكن للإنسان معها إذا زاولها أن يخفف أثر الغضب في نفسه، وأن ذلك كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- جمرة يلقىها الشيطان في قلب ابن آدم.

وقد ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أثر ذلك عليه بانتفاخ أوداجه، وحمرة عينيه، ومن ثم فإنَّه قد ينفرط ويخرج من طوره، ولا يستطيع أن يسيطر على نفسه، فيعتدي بالقول والفعل، ويصدر منه أمور لا تليق بالعقلاء؛ لأنَّ الغضب على درجات، وذلك أنَّ منه ما يصل إلى حد الإغلاق، أي: أن عقله يغلق بحيث إنه يكون كالجنون تماماً، لا يعقل قوله ولا فعله ولا تصرفاته، ولذلك تجد الكثيرين حينما يطلق أمرأته في حال الغضب يُسأل ما درجة هذا الغضب، فيقول: لا أدرِّي ماذا قلت، لكنهم أخبروني أني قلت لها كذا وكذا، فهذا غضب بأعلى الدرجات، وهو بإغلاق، يذهب فيها عقل الإنسان، نسأل الله العافية.

والمرتبة التي دونه هي المرتبة التي يشتت فيها الغضب على الإنسان، فيبدُّر منه ما لا يليق، لكنه يدرك ما يصدر عنه.

والدرجة التي دونها هي أن يحصل الانفعال في نفس الإنسان، ولكنه لا يكون بتلك القوة والشدة، فهذا أدنى مراتب الغضب.

والمقصود أن من الأمور التي يمكن للإنسان فيها أن يعالج نفسه إضافة إلى ما ذكرنا، وذلك أن الأمور الفائنة هي معالجة وقتية، إذا كان قائماً يجلس، وإذا كان جالساً يضطجع، ونذكرنا أثر ذلك على الإنسان من كف اليد والبطش والمشي إلى هذا الإنسان الذي غضب عليه، وذلك له تأثير في هدوء النفس، فإنَّ الغاضب لربما صار يرتعش واضطربت حركاته وتصرفاته، فلم يعد يسيطر على الأطراف، فإذا جلس صار أكثر سيطرة على النفس، وإذا كان جالساً وحمله الغضب على حال فإنه إذا اضطجع كان أكثر سيطرة على نفسه واستقراراً لأعضائه، ثم يطفئ جمرة الغضب كما قلنا: إنه جمرة يلقىها الشيطان في قلبه، جمرة من نار، فإنه يناسبها الماء، يتوضأ، هذه علاجات وقتية للغضب، وقلنا إذا غضب في وجه امرأته يخرج قبل أن يتكلم بكلام يندم عليه، ثم يطوف على أهل العلم ليبحث عن يعيد هذه المرأة إليه من جديد، بتلك علاجات وقتية في لحظة الغضب.

هناك علاجات بعيدة المدى، وذلك أن يروض الإنسان نفسه على الأخلاق الفاضلة، فيدرك الإنسان العلة، هذا أول شيء في معالجة علل النفوس وأدوائها.

المشكلة أن الكثرين لا يقرّون باعتلال أمزجتهم، وبأخطائهم وعيوبهم، وإذا جئت قلت له: عندك الخطأ الفلاني، أو الملاحظة الفلانية، صار كالشوكة في حلقك، وتتمنى أنك لم تتكلم، ويجادل أشد المجادلة ويرد ويکابر، ولا يعترف بوجود هذا الخطأ وهذا العيب الذي يراه كل إنسان، فالإنسان في كثير من الأحيان يعمى عن عيوبه، لا يراها، ويرى عيوب الآخرين.

فأول قضية تحتاج إليها في علاج النفس أن يعرف الإنسان عللها وأدواعه، فالشاب الذي يقول: أنا أطلب العلم، وهو مقصّر، نقول له: يا أخي أنت مقصّر، أنت كرسول، أنت جيد في الأمور التي فيها ترفيه، وفيها يمين ويسار، لكن العلم عنك بمنأى، فتراه يجادل، ويکابر أشد المکابرة، فمثل هذا كيف تقنعه أنه يضيع وقته، وهو لا يقبل أصلًاً أنك توجه إليه هذا الاتهام، هو لا يقر أنه مسرف في الوقت، ومضيع؟!.

والإنسان العاق لوالديه، تقول له: يا أخي، لماذا هذا العقوق؟ يقول: أي عقوق؟، أنا لست كذلك، أنا بالعكس، أنا أفعل كذا، وأفعل كذا، وأفعل كذا، يا أخي هذا شيء مشاهد، نحن نشاهدك إذا تكلمت مع أبيك وتكلمت مع أمك، تتكلم بطريقة مشدودة محتقنة الوجه، هذا لا يليق، تنفض يديك في وجه أمك، أو في وجه أبيك، ويقول: أبداً من الذي ي قوله؟ فهذه المشكلة الأولى أن يعرف الإنسان عيبه، فإذا كابر ولم يقر بالعيوب لا يمكن أن يتعالج.

الإنسان الذي يضيع الصلاة، ويتأخر عن الصلاة، ونحو ذلك، تقول له: يا أخي، لا يصلح هذا، قال: أبداً، من قال إني أتأخر؟ من قال إني أغيب عن الصلاة؟ ما شاء الله أنت دائمًا منذ أربعين سنة ما فاتتك كبيرة الإحرام، سعيد بن المسيب يتعلم منك، ونحن لا نرى.

فأول قضية أن يتبصر الإنسان بالعيوب، هذه هي الخطوة الأولى، وكثير من الأحيان الإنسان لا يبصر عيوبه، فمعاملته أسوأ ما تكون لزوجته، تلقى منه الأمرين، ومع الناس ما شاء الله الابتسamas، والأخلاق الكريمة، وإذا أتيت تكلمه قال: أبداً.

الأمر الثاني: أن يتذكر أن الأخلاق والأحلام ليست في حال الرضا، كل الناس حينما يكونون عندهم ما يحتاجون إليه من مطلوبات النفوس يوزعون ابتسamas ويكونون مرتاحين.

ليست الأحلام في حال الرضا*** إنما الأحلام في حال الغضب

إذا جاء ما يضغط على النفس، و يؤثر فيها مما يكرهه الإنسان هنا تظهر أخلاقه، ولهذا سمي السفر بهذا الاسم لأنّه يسفر عن أخلاق الرجال، يترك الإنسان مألفات النفس من النوم، تتغير عادته في النوم، وفي الأكل، وفي جلوسه، ودخوله وخروجه، فتظهر طباعه وأخلاقه، ومن ثم تذهب تلك الابتسamas والأخلاق الجميلة، ويظهر مدى تحمل هذا الإنسان من عدمه، فالأخلاق لا تكتشف في حال كون الإنسان مستريحاً. وربما بدا لك الإنسان ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، لكنك إذا دخلت معه في قضية أو حصل احتكاك أو مشكلة ربما تعاف البلد التي هو فيها، نسأل الله العافية.

فالأخلاق والعلم لا يدرك إلا في حال الاحتكاك، فالإنسان وهو في حال الراحة لا يدرك أنه ضعيف البنية والقوة، لكن لو كلفناه، قلنا: هيا اصعد هذا الجبل، تتبيّن قوته من عدمها.

بعضنا يمشي خمسمائة متر، ثم يشعر أن هذه قد تسمرت، لم تعد تحمله إطلاقاً، ويشعر أن رئته ستخرج من فمه، ولا يستطيع أن يمشي شيئاً واحداً زيادة على ذلك.

الخطوة الثالثة: وهي المران والملاحظة، مع تصوير النفس على الخلق الفاضل الذي تريد أن تروضها عليه، لربما يأتيك إنسان تُبَتِّلُ به معك في العمل، أو في الدراسة، يتصرف تصرفات فيها حماقات تستفز الإنسان وتجعله يغضب، ففي اليوم يحتاج إلى غضبين أو ثلاث أو أربع، بسبب هذا الإنسان.

أقول: ممتاز يمكن أن تعتبر أن هذه نعمة سبقت إليك، من أجل ترويض النفس على خلق الحلم، فكلما أتيت بتصرف لا يليق تقول: الحمد لله، الآن هذه تجربة جديدة لتطبيق الحلم، فابتسم، فالابتسامة لا تحتاج إلى شد للعضلات، وأضبط أعصابك، وأدرك جيداً أن هذا موضع جديد من مواضع الامتحان تتفق أو تنجح، فتصور أن ألماك الآن ثمانين تجربة على يد هذا الأستاذ الذي صار معك في العمل أو في الدراسة أو غيره، كل مدة يسيرة يجيئك بحماقة، فكلما جاءك بشيء يستفز، تقول له: بارك الله فيك، خير إن شاء الله، ما يكون إلا خيراً. هو طبعاً يستغرب؛ لأنه في العادة يأتيه سيل من الكلمات العنيفة، أو الشتائم أو نحو ذلك، فيستغرب، وهذه مشكلة، المفروض أنه يستغرب منا خلاف ذلك، أما أن يستغرب اللطف والإحسان والغافر فهو بهذه مشكلة. فأقول: عود نفسك على هذا، وكل تصرف مزعج اعتبره اختباراً جديداً.

فإذا مرت عليك في اليوم ثلاثة تجارب، وفي الأسبوع خمس عشرة تجربة، ونجحت في عشر في الأسبوع الأول وأخفقت في خمس، في الأسبوع الثاني تنجح في اثنين عشرة وتتفق في ثلاثة، الأسبوع الذي بعده تنجح في خمس عشرة، استمر على هذا سنتين وأن أخلاقك في هذا الجانب تغيرت.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم))⁽¹⁾، ولو تعلم الإنسان في اليوم الواحد مسألة واحدة سيتعلم في السنة ثلاثة وستين مسألة، فيصير عالماً، والحلم كذلك، إنما الحلم بالتحلم، يتکلف الحلم شيئاً فشيئاً، حتى يصير حليماً.

وهنالك من وبهه الحلم، فهو سجية له وفطرة من يوم خلقه، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لأش عبد القيس لما جاءه: ((إن فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والأناة))⁽²⁾.

أحياناً نرى الأسرة بكمليها كأنها معدن للحلم، وهذا شيء مشاهد، غيرهم يربون أكثر، ومع ذلك ترى هؤلاء معدناً للحلم وسعة الصدر.

وبعض الناس حُمَّم، من شدة غضبه، وأعرف البعض يلقب بالحُمَّة من شدة احترافه وسرعة غضبه، كأنه شيء المتقدم من شدة الإحرق والحرارة.

¹ - أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (20/258)، رقم: (1763)، والأوسط (3/118)، رقم: (2663)، والبيهقي في شعب الإيمان (7/398)، رقم: (10739).

² - أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله -صلى الله عليه وسلم- وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وتبلیغه من لم يبلغه (1/46)، رقم: (17).

وتنكر أن الغضب الذي أنت تغضبه هل يحصل لك به نفع أو لا؟ أليس يرتفع ضغطك وتتأتيك الأوجاع والأمراض المستعصية، والسكر يرتفع، والجلطات؟، أليس هذا هو الواقع؟ لماذا الإنسان يجعل نفسه بهذه المثابة؟ فاترك الذي يضرك.

وينبغي تذكير من رأيته سريع الغضب أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، فلما استب رجلان عند النبي -صلى الله عليه وسلم- فغضب أحدهما، فاشتد غضبه حتى انتفخ وجهه وتغير، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الذي يجد))، فانطلق إليه الرجل فأخبره بقول النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: تعوذ بالله من الشيطان، فقال: أمنجون أنا؟! اذهب⁽³⁾.

ولو رأى الإنسان نفسه وهو في حالة الغضب، وقيل له: شاهد نفسك وقتما كنت غاضبا، قال: أعوذ بكلمات الله التمامات من شر ما خلق، بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا السماء وهو السميع البصير.

فلا تجعل نفسك في موضع غير لائق، هذا بعض ما خطر في موضوع الغضب، والنفوس تحتاج إلى معالجة، وليس كل الغضب مذموماً بطبيعة الحال؛ لأن الإنسان يغضب إذا انتهكت حرمات الله، النبي -صلى الله عليه وسلم- غضب في حالات كثيرة لما جاعوا يشعرون في خبر المرأة، المرأة المخزومية التي سرقت، لما جاء يشفع فيها أسامة بن زيد، فقال: ((أتشفع في حد من حدود الله؟))⁽⁴⁾، قوله له أيضاً: ((أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله))⁽⁵⁾، وقصة معاذ لما أطال على المصليين في الصلاة، قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يا معاذ أفتان أنت؟))⁽⁶⁾، فيغضب الإنسان إذا انتهكت حرمات الله، أما الذي لا يغضب لمحارم الله فهو مريض.

ومن الغضب المحمود الغضب في الموعظة، تجد هذه أبواباً في كتب السنة في البخاري وغيره، النبي -صلى الله عليه وسلم- كان إذا خطب كأنما ينذر قوماً يقول: صبحكم ومساكم⁽⁷⁾، لأنه يتفاعل مع الخطبة، والموضوع الذي يتحدث عنه، لذلك تجد بعض الخطباء كلامه ممتاز وجميل وخطبة مضبوطة، لكنها غير مؤثرة.

فيسأل بعضهم، يقول: لماذا خطبي ما لها ذاك الصدى عند الناس؟ فكنت أقول لبعضهم: لأن الكلمات تولد من فمك ميتة؛ لأنها غير متفاعلة في نفسك أنت، تقرأ من ورقة، تتكلم من طرف لسانك، أنت لم تتفاعل مع الموضوع حتى يتفاعل الآخرون معك، والناس يعرفون الفرق بين النائحة المستأجرة وبين التكلي، فليس

³ - أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعنة (2248/5)، رقم: (5701).

⁴ - أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب كراهي الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان (2491/6)، رقم: (6406)، ومسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود (1311/3)، رقم: (1688).

⁵ - أخرجه البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: {ومن أحياناً}، (6/2519)، رقم: (6478)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله (96/1)، رقم: (96).

⁶ - أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب من لم ير إكفاراً من قال ذلك متأولاً أو جاهلاً (2264/5)، رقم: (5755).

⁷ - أخرجه مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (592/2)، رقم: (867).

الخطيب هو الذي يعرف كيف يَصُفُّ موضوعاً، ويعبر بكلمات جميلة، هذا لا يعجز عنه أحد، لكنه يعيش مع الموضوع، ويتفاعل معه ويتأثر به، ويرى أن هذه مشكلة تحتاج إلى معالجة.

هذا، وأسأل الله أن ينفعنا وإياكم بما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.